المعماري المعلم

عصام صفي الدين

يا أحفادي

من الطلبة الذين
قد تقابلهم، أو من حديثي التخرج وشباب المهندسين

بمختلف من الجد أو الوالد أو المعلم أساتذتكم يا من تتأثرون جمالياً بمجرد تشكل منتج فكري زها حديثاً، أو من حذى حذوها دون إدراك للمسببات وعوامل التشكل، ودون صبر في المعالجة إلا التقليد والمحاكاة، بل ودون معرفة عن هذه المعمارية العراقية البريطانية، وكيف وصلت هي أو كانت تصل إلى صياغاتها المبهرة للكثيرين، وكيف قضت سنوات وسنوات لاكتساب خبرات، ثم عثرات، ثم ممارسات لرسم طموحات، وإثبات للذات، ولفرزها من تميزات، فاتجهت بنجاح إلى هذه الاتجاهات من اللوليبيات والضخم المذهل من المرئيات، فكيف تتجهون أنتم الآن إلى هذا... دون فهم للأصوليات، وصالح المنجزيات ودون تواصل مع التراث الذي فات... فلا تأتونا بجديد أو أي من المشروعات المقنعات بالفكر وبالدراسات، وبإرادة الاختيارات دون إبهارات.

● إستمعوا إلى جدوعصام
الذي مازال يتعلم ويضيف راجياً الطيبات

إستمعوا أولاً بصدق النية والتوجه والإخلاص للعمارة، فمثل محاكاة زها أو نورمان أو فرانك أو... أو... ، ولكن حديثي عن زها بالذات، لأنها صياغاتها هي الأكثر تأثيراً على الغالب الأعم، وقد سعدت بلقائها شخصياً وكنت بصحبة المعماري العراقي المتميز رفعت شاذرجي في المركز الثقافي العراقي بلندن حول عام ١٩٧٨ تقريباً، ولمدة ساعة أو أكثر.

راجعوا يا أحفادي أولاً ما تأسستم عليه وابحثوا عن أوجه الإيجابيات وأوجه القصور فيها، ثم راجعوا ما يجب أن تتواصلوا معه في بيئتنا طبيعياً وعمرانياً وتراثياً، واستخرجوا الإيجابيات... ثم إنطلقوا للإبداع.

أما عن زها حديد كمعمارية ... وقد أصبحت علامة في تاريخ العمارة المعاصرة، فهي أصلا عراقية المولد والمنشأ والتربية الأولى، وقد استفادت من الوراثة بناءً على أن هوايتها بالفن أصلا، وقد مارست التعبير بالرسم اليدوي والتشكيل المجسم والابداعات الجمالية كهواية، ثم ضمن الدراسة وهي في التعليم العام، مع تعتعها بدقة الملاحظة، وكثرة التعايش والتأمل للعناصر الطبيعية كمشاهد وكعناصر متعددة، مما أكسبها قدرات ومهارات إبداعية وتشكيلية واحساسات إنشائية، واستمتعت بمتعة وبوعي لعدة أنواع من الموسيقى ما بين الواجبة والمحلية والتراثية، ثم التقاليدية الكلاسيكية العالمية، فكم ممتنة يا أحفادي تنشأ هكذا، ووجه موصيته إلى إدراك ما ذكرته تنمية إبداعية ومهارية... ثم كانت هي على درجة من المحبة لشمولية الثقافة مثل كثير من العراقيات، وقد درست وأحبت الرياضيات!!! ثم العمارة، ثم انتقلت إلى إنجلترا، وبدأت مسارا جديدا عند وصولها إلى سنوات الثلاثينيات من عمرها، مستمرة في تثقيف نفسها بالمعرفة وبالموسيقى وبزيارات المتاحف المتنوعة، وحملت كأي مبتدئ عقائب معمارية كثيرة بانجلترا، والكتسبت خبرات ومهارات... غير مقلدة لأحد مما قد صادفتهم.... وقد أطلعتني وقتها في تلك الأمسية على خطاباتها اليدوية في الرسم، وبضعة صور لأعمال شاركت في تصميمي وصياغتها... وقبل أن تأخذ للتسجيل مسارها التي اشتهرت به، لكن إرهاصاته قد بدأت في التبلور في ما بعد كل ما تقدم من الكتسابات فنية ومعمارية نظرية وعملية، ومهارية متنوعة، بل وإدارية أيضا، كإدارة عمل ومشروعات، فأين أنتم يا أحفادي من هذا كله قبل حتى كلمة الاشكال دون دعي مهني.

ورغم تحفظ الشخصي على منتجها المعماري المتميز في العشرين سنة الأخيرة، والذي خلق تيارا مؤثرا، لكنه وبالدرجة الأولى يتجاهل تنوعات الأماكن وثقافاتها ومناخها الاقليمي المحلي، وتراثها المعماري والعمراني، بل هو تعبير عن ذاتية وتميز منهجية وصياغة زها حديد فقط... كعلامة إبداع واجتهاد وطموح خاص له جاذبيته الجمالية من حيث الضخامة وليونة الخطوط وعلاقات الأقواس الانسيابية.

وبشكل كبير هذا التحفظ البعض من الزملاء والرؤساء تجاه التصوير الشديد في تعاملاتهم مع المناخ، على اعتبار أن العمل كمبنى بناءً له ضخامته وكذلك استقلاليته الكاملة المعزولة عن ما حوله، وما يترتب عليه من اعتماد كامل على استهلاك الطاقة الكهربائية وتتبع إلى درجة مضافة إلى تكاليف التجهيز لذلك صناعيا ومصروفات الصيانة لتكسف اصطناعي، وخسر الاحتمال الكبير على تكليفها بالأعمال للمشروعات بالمئات، نظرا للتميز التشكيلي، والإبهاري والدعائي، وتوافر رأس المال، وتنافس الجرعات والأفراد على الفوز بوجود إسمها بصحبة لأعمال المهمة.

وطبعا هم تختلف عن الآخرين من المعاصرين لها في وقتها وحاليا، وهم أيضا لهم شهرتهم واجتهاداتهم الخاصة بهم، إلا أن تأثيرهم أقل من تيار تأثيرها الذي ظهر متميزا منذ أواخر سنوات الثمانينيات، وانضج منذ سنوات التسعينيات... وبالتحديد الذي تحقيقه قبل الصياغة من وقت لآخر، سواء ما كان منها منهجا أو ما كان منها طموحا أو تجريبا جديدا، أو أدرعبة من هذا وذاك، ثم من فكر إنشائي مستحدث قادر على تنفيذ تصوراتها.

وعموما فإن من يحتك بإبداعات النطاق الأوروبي يعرف أنه كانت هناك تأثيرات قوية من جراء الحرب العالمية الأولى، ثم الثانية، على كل سلوكيات من حاربوا خلال الإبداعات سواء في الفنون أو العمارة المتكاملة مع الفنون، هذا طبعا بالإضافة لأن طبيعة المجتمع الأوروبي في الإقبال على الفنون وعلى الثقافة، فينسب ذلك في سرعة التفاعل، ورغم كل التحفظات والخفاقات على قيمة وقدر كل ما هو قديم أسبق، وأيضا فقد صاحبت النواتج من الحروب، ومن الاختراعات الفكرية والفنية النظرية والعملية التطبيقية، والمدارس الفكرية المؤسسية الكثير من المتغيرات في العلم والسياسة.... والفنون الجميلة، وكل أثر على العصر وعلى المتلقين وبسرعة، بعكس الأوضاع في النطاق المصري والعربي، الذي كان تأثره وحدثا نسبيا، وكل هذا كانت لحصيلته تؤثره على ما وصل إليه معماريون كثيرون في أوروبا.

وعلى صاحب رأس المال

إعفال أو تخاصل لأساسيات الوظيفة النفعية بالدرجة الأولى، وكيف أن زها حديد قد حضرت مئات وئات من العروض الموسيقية والمسرحية، وحالت في معارض الفنون والمتاحف، ثم اجتهدت، وأخذت بالأسباب، وأتقنت وجودت، ونافست، وطبعا وفوق كل ذلك فقد صادفت مجتمعات لها ظروفها غير ظروفنا، وبها حركات وتعبيرات عمرانية واقتصادية مختلفة، وصادفت أصحاب رؤوس أموال يريدون في أعمال متميزة تنافسية وإعلانية، وصادفت قوانين وتشريعات ولوائح تنظيمية تساعد على خلاقة وبروز الفكر الإبداعي، ومشكلاتهم المجتمعية تختلف مشكلاتنا هنا.

ومن منكم يا أحفادي وبناتي التخرج يعلم منهج زها حديد في تناول التصميم والانجاز في مكتبها المؤسسي الكبير، حيث تبدأ.... بعد أن يتم تكليفها أو بعد أن تسعى هي للدخول في المسابقة، تبدأ بوضع تصورها العام من خلال خبرتها السنوات والسنوات، كفكرة انطباعية أولى أو مصحوبة بما يمكن من مرادفات ودلائل، حتى لو كانت ترجع وأحيانا منها أصلا، ثم تستدعي فريق العمل الشباب من مختلف التخصصات لديها في اجتماع، طارحة عليهم أهم مكونات البرنامج وتوصياته، وما فكرت هي فيه كفكر مبدئي، ليجتهد كل منهم في دراسته بلورته من خلال تخصصه ورأيه حتى لو كانا مستقبلا لعمل تعديلات من وجهة نظره، ووفق ما وضعته هي من مسقط تقريبي وصياغة كتلات وحوائط، ما لم تبدأها بمجرد تصور للشكل اللولبي أو الانحنائي أو الإبحاري، وإنما بنواة الفكر الوظيفي النفعي بالدرجة الأولى ووفق ما تصورته من مؤثرات مبدئية... إلى أن يتم التصور، ثم تجتمع مرة أخرى أو مرات أخرى حسب جدول زمني معين من طرحت عليهم الفكر المبدئي، ويبدأ النقاش النقدي والتحليل والتقني والتشكيلي... ثم لتصل هي إلى القرار الذي يتوافق فيه الفكر الوظيفي النفعي مع الجمالي مع الإنشائي مع التقني... ثم الرسومات ثم العمل، ثم أرض الواقع...

إنتبهوا يا أحفادي بعقلانية وجهد ومثابرة، ولعل فيكم من هو أفضل من زها حديد مستقبلا.

جدكم صفي حسين

٢٠١٩/٩/١٦

(٣) فمن منكم يا أحفادي وياشباب الخريجين قد انتبه وقرأ عن هذا العبء مرة في تأويل النواتج في صياغات الفنون وتوجهاتها وتجاربها ومتغيراتها المتسارعة، ومن منكم يعرف أن أغلب من كانوا من المعماريين المجددين قد جددوا في مسارا تهم وانطلقوا مع طموحاتهم وآفاقهم التجريبية والذاتية تابعاً لكل هذه الظروف المتسارعة عبر القرن العشرين خاصة إبتداء من ربعه الأول وكلهم أسماء مشهورة.

(٤) من منكم يا أحفادي وياشباب الخريجين يعرف أن هذا كله كان له تأثيره على المعمارية وهي حديث مع زمرة من تأثرا أكاديميا وعمليا، واستلهم تصميم أبي كوبزما قد أصبحت علامة إلا بعد الكثير من الأمور، أدرج الموهبة، والتفاعل مع جماليات المشاهد الطبيعية وسببا ترعرع، ثم النشأة مع الموهبة والدراسة، وكيف استفادت هي بعقلانية وبعاطفية ما بين أصول المهنة وبين جاذبية التصورات والخيال، كما استفادت من تجارب عدة مدارس فنية وفكرية وفلسفية، وليس من دراسة سنة أو أربعة في قاعات درس لا تتعدى الإنفتاح فقط في اتجاه كيفية تفكير وكينونة الكتاب خبرات، فقد استفادت زها مثلا من تأخر فكر الباوهاوس (والتر جروبيوس) كمؤسسة متكاملة، واستفادت من طروحات لوكوربوزييه، ليس بطريقة مباشرة، وإنما من الدراية بالثقافة والنتاج الفكر، واستفادت من عموم حركة التطور السريع للفنون الجميلة التشكيلية والتطبيقية، وبعضه قد نبع أيضا من روسيا، حتى كفكر معماري، ومن الحركة الفنية الروسية فيما حول عام ١٩١٥، المرتكزة على علاقات رمزيات والدوائر والخطوط الانسيابية، التي تضافرت نسبيا مع الوظيفية في العمارة، وما يسمى نظريا السوبرماتيزم، أو البنيوية في الفن ثم في العمارة.

(٥) من منكم يا أحفادي وياشباب الخريجين يعرف أن زها بعد هذا كله قد طورت من نفسها بنفسها، لتعد من نفسها لنفسها مسارا خاصا، وليس لمجرد تقليد أشكال لمصممين آخرين، وكيف أنها استفادت من أساتذتها رم كولهاس والياز كيليس في مرسمها التعليمي في الجمعية المعمارية في لندن، وغيرهم، وكيف أنها وضعت من التصوير كوسيلة من وسائل وصولها إلى مدرستها في التصميم، مع بحثها في وسائط جديدة دون